مفتــتح

الاشتياق إلى علم المبدأ

محمود حيدر

* ما كان خيارُنا ليستوي على "**علم المبدأ**" كإسم لهذه الفصليَّة، لولا شوقُنا إلى مطابقة الإسم على المُسمَّى، وترسُّم الماهيَّة على الهُوِّيَّة. الواجبُ أن يتناسبَ الإسمُ مع ما ينبغي أن يكون عليه كلُّ ذي إسمٍ ونعت. وإنْ لا.. جاء الحاصلُ خَلَلاً أو اشتباهًا. فما من خلافٍ على أنَّ صيرورةَ الشيءِ ليغدو صوابًا تكون بقيامِه على واحديَّة الدالِّ والمدلول عليه. إذ لا تُنجزُ حقيقة كلِّ مقصودٍ إليه، وإدراكُ هوِّيَّته ومعناه من غير اتِّحادٍ لا تنفكُّ أواصرُه بين ثلاثة أضلع متآزرة: العِلم والعالِم والمعلوم. ولقد تنبَّهت إبستيمولوجيا الحكمة المتعالية إلى هذا التآزر لتتبيَّن أنَّ الفكرة حتى تبلغ معناها الأتمَّ توجبُ التلازُمَ بين ثلاثة عناصر: المفكِّر والتفكير والمفكَّرُ فيه. فلو انحَذَفَ أيٌّ من هذه العناصر، ولا سيَّما المفكِّر، لتعطَّلَ العنصران الآخران، وفَقَدَتِ الفكرةُ مغزاها.

حين التقى الرأيُ على تسمية المشروع الذي نحن بصددِه، بما سمَّيناه به، فإنَّما لغاية إنشاء مفهومٍ يؤسِّسُ لنظريَّة معرفة، ويمهِّد لأفقٍ جديدٍ في المعارف الإلهيَّة المعاصرة. من أجل ذلك مضَيْنا إلى مصطلح يستجلي المخبوء في الحكمة الصوفيَّة العرفانيَّة، وينفتح على مسارٍ مُفارِق في علم الوجود. وإذن، لم يكن قصدُنا من حَملِ "علم المبدأ" على ما عليه العرفان وحكمة التصوُّف من وعود

ميتافيزيقيَّة، إلاَّ لجلاء ضميرٍ مستترٍ يُعربُ عن المعنى نفسه. قد يبدو للناظر – تلقاء هذا المحمَل – أنَّه بإزاء ثنائيَّة مصطلحيَّة أحدها مشهورٌ وبديهيٌّ، وثانيها مستحدثٌ ويحتاج إلى تنظير، إلاَّ أنَّهما يفضيان إلى وحدة معرفيَّة ناشطة ضمن حقل دلاليٍّ واحد. فما تبديه الحكمة العرفانيَّة من اشتياق لا يبور للتعرُّف على الخلق الأول، هو عين ما ينبغي أن يبديه علمُ المبدأ في مشاغله الأنطولوجيَّة المتعالية. نعني بهذا، الشوق الشغوف إلى استكشاف وتبصُّر وتدبُّر ماهيَّة أوَّل بَدءٍ تجلَّت فيه مشيئة الأمر والخلق. وليس الاشتياق إلى معرفة ماهيَّة هذا البَدء وما يحتجب فيه، إلاَّ لكونه مستودع العلم الذي أودِعَت فيه عناية المُبدِئ بجميع ما هو مكنون فيه من عجيب التكوين.

I

بين علم المبدأ وميتافيزيقا الحكمة العرفانيَّة، تستوي واحديَّة المعنى والدلالة والمآل. فالتناظر بينهما يؤول إلى وحدة الصفة والرؤية والغاية؛ نظير أنَّ يسمَّى الشيء بما قام به من الصِّفات. ولمَّا كان كلُّ علم – كعلم المبدأ – هو قضيَّة تُستعمل على موصوف وصفة، وعلى نسبة تلك الصفة الى الموصوف، فلا بدَّ من الوقوف على المُراد من المعاني: معنى الإسم، ومعنى المسمَّى، ومعنى التسمية، وكذلك معرفة معنى هُوِّيَّة وغيريَّة الشيء حتى يُتصوَّر من بعد ذلك أنَّه هو أو غيره. عند هذه المنزلة، يستوى اللَّفظ والعلم والمعلوم – كما يبيِّن أبوحامد الغزالي – على ثلاثة أمور متباينة، لكنَّها متطابقة ومتوازية في الآن عينه. فلو قيل مثلاً، ما حدُّ الإسم: قيل إنَّه اللَّفظ الموضوع للدلالة؛ فإذا عَرَفْتَ أنَّ الإسم يُعنى به اللَّفظُ الموضوع للدلالة، فاعلم أنَّ كلَّ موضوع للدلالة، له واضعٌ ووضعٌ وموضوعٌ له.

ولمَّا لم يكن "علم المبدأ" مجرَّدَ إسمٍ نبحث له عن مسمَّى، فهو في الحقيقة عينُ ما يحويه المسمَّى من سمات وصفات ومقاصد. لهذا افترضنا أن يصير هذا العلمُ منفسَحاً لاستجلاء ميتافيزيقا حقَّانيَّة مسدَّدة بحقائق الوحي ومبادئ العقل، ومؤيَّدة بعرفان جميل الحقِّ على الخلق. ولأنَّه علم تعرُّف على بَدء الأولى، فهو كذلك، وبالمقدار عينه، تعرُّفٌ على بَدءِ الآخرة. فمتى عُرِفت البدايات – كما يقول العرفاء – عُرفت النهايات. والتعرُّفان معاً، يؤولان إلى أرض الحقيقة المقصودة سواءً بسواء؛ ذلك بأنَّهما يجريان مجرى الرحمانيَّة، ويسريان تحت قيَّوميَّة المُبدئ ورحيميَّة المُعيد. قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[سورة الأنبياء – ١٠٤].. يفتح على واحدة من أجَلِّ سبلِ الاستبصار بمبتدأ الخلق.

علم المبدأ ILMOLMABDAA
العدد التجريبي الأول . 1443هـ . ربيع 2022م

وسيكون علينا حينئذٍ، أن نرى إلى البَدء الأوَّل كما وصفه بارِؤه. والمُراد من هذا، أنَّ علم المبدأ هو علمٌ تعليميٌّ قاصدٌ بيان الفعل الإلهيِّ في البَدء والمُنتهى. والفعل الإلهيُّ في مقام التبصُّر، هو فعلُ معرفةٍ وتعرُّف، وهو كذلك فعلُ هداية منه إلى الخلق، مثلما هو فعلُ استهداءٍ للمخلوق حين الرُّجوع إلى الخالق. فمن عَرَفَ المبتدأ عَرَفَ المُبدِئ، ومن عرف المُبدِئ عَرَفَ المبدأ والمعاد وصار في الموحِّدين. وتلك الجدليَّة لا تتأتَّى على نشأة ما تقرِّرُها قواعد التصوُّر والتصديق الناظمة لمبادئ العلم الحصوليِّ، وإنَّما على سيرة علمٍ حضوريٍّ كشفيٍّ يدرك الموجود بذاته وصفاته وآثاره، ولا يقبل الخلل والزوال. ولأنَّه إدراكٌ واقعٌ فوق طَور العقل الأدنى، فهو يتأبَّى على ما يأنَسُ إليه الساكنون في دنيا الاستدلالِ والقياسِ وعالم المفاهيم الأرضانيَّة.

II

ما الذي نبتغيه من الاشتياق إلى علم المبدأ؟..

لا نتريَّب القول أنَّ مسعانا إلى محراب هذا العلم محمولٌ على شغفٍ ودود. فإنَّما نرمي إلى رهانٍ يسترجع ما هو مفقودٌ في عالم الميتافيزيقا، ويتوق للعثور على موجودٍ أصيلٍ عصف به النسيان. وحين يكون سمْتُ "علم المبدأ" وغايتُه استشكافَ المنسيِّ والمغفولِ عنه من الوجود، فممَّا لا ريب فيه حالئذٍ، أنَّنا تلقاء مهمَّة عظمى تستلزم أوَّل ما تستلزم، همَّة الاشتياق لاستبصار الدرب الموصل إليه.

ولكونه علمًا ينشد التعرُّفَ على الموجود الأوَّل وسرِّ ظهوره، والكيفيَّة التي ظهرت منه الكثرة، يعيد علم المبدأ الاعتبار لكلام متجدِّد عن واحديَّة الوجود بين الخلق الأوَّل والكثرة الصادرة منه. تبيان الأمرِ، أنَّ هذا المخلوق الابتدائيَّ هو ذاتُه علَّةٌ بَدئيَّةٌ لما لا حصر له من التعيُّنات الوجوديَّة. بل هو الأقربُ معرفيًّا إلى ما عبرَّ عنه ابن عربي بـ "الحقِّ المخلوق به". وبوصفه على هذا النحو، فإنَّه لا يتعدَّى كونه مَظهَرًا لإظهار ما أراده منه المُظهِر الرحمانيّ. فإنَّه إلى غِناهُ وقدرتِه، محتاجٌ إلى إرادة موجِدةٍ متعالية تُغنِيه وتمنحه القدرة على الخلق المتجدِّد والديمومة. من أجل ذلك، يصير الكلام على "الحقِّ المخلوق به" موازيًا للكلام على "الوجود الاستكماليِّ". وهو وجودٌ مُفارقٌ ماهيَّتُه الذاتيَّة الكمال والنقص، كاملٌ لأنَّه يوسِّسُ لما بعده بوصفه بدءًا أوليًّا للموجودات، وناقصٌ لأنَّه مفتقرٌ لمبدأ أعلى يؤسِّسُه ويمنحه القدرة على التأسيس. ولهذا السبب يبدو هذا الجوهر المنفرد

بذاته، والذي توقَّفت عنده الميتافيزيقا القبْليَّة بذهول، وأضناها سرِّه وأصله.. هو المخلوق الأوَّل المختار الذي أراده مبدِئُ الوجود ليكون الأوَّل في عالم الخلق والأمر.

المهمَّة الكبرى لعلم المبدأ، استكشاف حقيقة مخلوق فُطِرَت خِلقتُه على وحدة البساطة والتركيب. وهو الجوهر الوحيد الذي حظيت ذاتُه بفرادة جمع الوحدة إلى الكثرة، الأمر الذي يميِّزُ ماهيَّته المتقوِّمة على الثَّراء والفقر في آن. فهو من جهة محتاجٌ إلى جود الموجِدِ، ومن أخرى هو مبدأً مؤسِّسٌ لعالم الممكنات.

ولو كان لنا أن نبتنيَ له منزلاً في سماء الُّلغة لاستقام المخلوقُ الأوَّلُ على كلمة "المثنَّى" كإسم دالٍّ على الكائن المفطور على الزوجيَّة.

والمثنَّى في الُّلغة والإصطلاح هو كينونة واحدة، وإنْ تركَّب على التعدُّد والاختلاف. وهذا ما يُكْسِبُه صفة جوهرانيَّة تجعله كائنًا منقطع النظير. فهو يفارق الوحدة وهو منها، ويُغاير الكثرة وهو حاضرٌ في محرابها. هنالك التحامٌ وثيقٌ في كينونة المثنَّى.. فلا يستطيع أيٌّ من جناحَيْه أن ينفكَّ عن نظيره انفكاكًا تامًّا، بل هو يتميَّز عنه في صورته وحسب. ولقد قصدنا بـ "المثنَّى" كإسمٍ وجوديٍّ للموجود الأوَّل، التعرُّف على واحدة من أهمِّ وأبرز معضلات علم الوجود، عنينا بها الكيفيَّة التي قاربت فيها الميتافيزيقا مسألة إيجاد الموجودات. ولأنَّ المسألة في هذا الموضع تقتضي جلاء مفارقات الفعل الإلهيِّ وعنايته بالعالم المخلوق، فقد افترضنا "المثنَّى" كتوسُّط وجوديٍّ أوجده الله بالأمر والكلمة، ليكون العلَّة الأولى للإيجاد. فهو الكائن الأوحد الذي يجمع إلى خاصِّية البساطة والتركيب، خاصيِّة الجمع بين الأضداد. وبما أنَّ المثنَّى هو المخلوق الجامع للأضداد، واصطفاه الخالق من أجل أن يدبِّر به دنيا الكثرة والاختلاف، فقد حظي بعناية خالقه، فكانت له منه حكمةُ التدبير. ولكون الإنسان هو نقطة الدائرة في حضرة المثنَّى، ونظير الكون الأكبر الحاوي للموجودات كلِّها، فسيكون عليه أن يتولىَّ تنجيز مهمَّته العظمى في الاستخلاف. وبهذه المنزلة يتبوَّأ المثنَّى – بوصفه بدءًا أوَّل – مكانته المتقدِّمةَ في عالم الإيجاد. ولأنَّه الكلمة البَدْئيَّة الصادرة من عالَم الأمر، يتَّخذ بُعده العينيَّ الواقعيَّ من خلال استيفائه لقوانين التدبير والعناية بدنيا المخلوقات. ولمَّا ثبُت أنَّ لكلِّ فردٍ في الكثرة الإيجاديَّة نفسًا فرعيَّةً تدبِّر له أمره، فإنَّ هذا الفرد لا يقدر أن يبرح زوجيَّة المثنَّى والقوانين التي تنتظمه.

وحاصل الأمر أنَّ الوجودَ الوحيدَ الذي لا ضدَّ له، بسبب تعاليه على الثنويَّة والمثنَّى في آن، هو المُبدِئ والمُعيدُ جلَّ شأنُه.

III

في العرفان النظريِّ يتوسَّع الأفق الميتافيزيقيُّ لعلم المبدأ. وستظهر لنا مساعٍ فريدة تتغيَّا الخروج من العثرات التي تحول دون بلوغ الأجوبة الآمنة بصدد العلاقة بين الله والإنسان والكون. ولأجل الوقوف على أهمِّ المساعي التي شهدها تاريخ العرفان النظريِّ نحيل إلى قاعدتين تُعربان عن أبرز ما قدَّمه الشيخ ابن عربي في هذا الشأن:

– **القاعدة الأولى – علم "كان"**: ولهذه القاعدة صلةُ نَسَبٍ وطيدة بحكمة المثنَّى. فالمقصود من هذا العلم هو تنزيه الله تعالى عن كلِّ ما سواه من أشياء الكون. وتأسيسًا على قوله تعالى: ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾ [الشورى – ١١] يقرِّر علم "كان" أنَّه سبحانه لا تصحبُه الشَّيئيَّة، ولا تنطبق عليه.. وأمَّا لفظة (كان) فليس المُراد منها التَّقييد الزمانيِّ، وإنَّما المُراد بها الكون الذي هو (الوجود). فتحقيق "كان" – كما تقرِّر الأطروحة الأكبريَّة – أنَّه حرف وجوديٌّ، لا فعل يطلُب الزمان.

– **القاعدة الثانية – علم البَدء:** وهو علم لا ينأى من علم "كان"، بل هو الحلقة التالية في علم التوحيد. فإذا كان علم "كان" هو الإقرار بالذَّات الأحديَّة وتنزيهها عن الفقر والإمكان، فإنَّ علم البَدء هو الإقرار بحاصل الكلمة الإلهيَّة "كُن". أي بالموجود البَدْئيِّ كأول تجلٍّ إلهيٍّ في دنيا الخلق.

ولمَّا كانت التأسيسات النظريَّة لعلم المبدأ، تتمحور على الإجمال حول فضاءين متلازمين، هما: العلم بالله والعلم بعالم الخلق، فإنَّ التسييل الإبستمولوجيَّ لهذين الفضاءين أمرٌ يندرج في مقدَّم الأولويَّات التي ينبغي أن تمهِّد لأفقٍ ميتافيزيقيٍّ يعمل على إنجاز نظامٍ معرفيٍّ للتوحيد بركْنَيْه الأساسيَّين: توحيد الخالق وتوحيد المخلوقات. فإذا كان مقتضى الأوَّل توحيد الخالق بتنزيهه عن الثنائيَّة والتركيب، فمقتضى الثاني توحيد الخَلق، وتدبير حاجاتهم على كثرتها وتنوُّعها واختلافها. وما من ريب، أنَّ هذه المهمَّة المركَّبة لميتافيزيقا علم المبدأ استدعت مجاوزة منعطفين معرفيَّين لا يزالان موضِع مكابدة في المباحث النظريَّة لعلم الوجود:

الأوَّل: يتَّصل بالأثر المترتِّبِ على الفصل الأنطولوجيِّ والمعرفيِّ بين الله والعالم؛ وهو ما ذهبت إليه الديانات غير الوحيانيَّة، ومعظم المدارس المشَّائيَّة، ناهيك بالوارثين من مذاهب الفلسفة الحديثة.

الثاني: متعلِّقٌ بما تستثيره نظريَّة وحدة الوجود من شُبُهات، ولا سيَّما تلك القائلة بحلول الكلِّ في الكلِّ، والواحد بالكثرة، والله في العالم.

IV

كفَّت الميتافيزيقا التي عهدناها مع قدماء الإغريق عن أن تكون العلم بإلهيَّات ما بعد الطبيعة. جرى هذا من بعد أُنسِها المتمادي بسِحرِ المفاهيم. حتى لقد أخلدت إلى دنيا الطبيعة، ودارت مدارها، ولم تكن في مجمل أحوالها ومشاغلها سوى مكوثٍ مديدٍ على ضفاف الكون المرئيّ. لقد انسحرت الفلسفة الأولى بالبادي الأوَّل حتى أشركته مُبديهِ وبارئِه، ثمَّ راحت تخلع عليه ما لا حصْرَ له من ظنون الأسماء: المحرِّك الأوَّل غير المتحرِّك، "النومين أو الشيء في ذاته"، "العلَّة الأولى" و"المادَّة الأولى أو الهيولي"، وأخيرًا وليس آخرًا "القديم والأزليّ".. وجريًا على هذه الحكاية ستنتهي إلى نعته بالموجود الذي أوجد ذاتَه بذاتِه من عدم، ولمَّا أن وُجدَ لم يكن له من حاجة إلى تلقِّي الرعاية من سواه. هو بحسب "ميتافيزيقاهم" كائنٌ مكتفٍ بذاته، ناشطٌ من تلقاء ذاته، ومتروكٌ لأمر ذاته.

جمعٌ من الحكماء العرفاء تنبَّهوا إلى هذه الدقيقة فوجدوا أنَّ ما أُطلقَ عليه المادَّة الأولى، كان الأولى أن يُنعتَ بـ "المُمِدِّ الأوَّل" في المحدثات؛ وليس ببعيدٍ أن يُسمَّى الشيء بما قام به من الصِّفات. وإنَّما عُبرِّ عنه بالمادَّة الأولى لأنَّ الله تعالى خلق الأشياء على ضربين: منها ما خُلِقَ من غير واسطةٍ وسبب، وجعله سببًا لخلق شيءٍ آخر، ومنها – وهو الاعتقاد الصحيح – أنَّه تعالى أوجد الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب. والذي يصحُّ أنَّ أوَّل موجودٍ من غير سبب هو مخلوقٌ متقدِّمٌ، ثمَّ صار سببًا لغيره ومادَّة له ومتوقِّفًا ذلك الغير عليه كتوقُّف العالِم على العلم، والحيِّ على الحياة عقلاً، أو كتوقُّف الثواب على فعل الطاعة شرعًا. لكنَّ الشيخ الأكبر لا يكتفي بنقد معاثر ما عَرَضه قدماء الإغريق وسواهم في تعريف الموجود الأوَّل، فقد انتقل إلى أرض العرفاء ليقول إنَّ بعضهم عبرَّ عنه بالعرش، لكون العرش محيطًا بالعالم أو أنَّه جملة العالم، ومنبع إيجاد الأمر والنهي.

من المبين أنَّ الميتافيزيقا القبْليَّة لم تستطع أن تفارق معضلتها وهي تتغيَّا الاستفهام عن مبادئ الوجود الأولى. يظهر ذلك رغم الانعطافات التي شهدت على مشاغلها الكبرى لعشرات القرون. حتى الفلسفة الحديثة – وهي في ذروة دهشتها بذاتها – لم تَبرح هذه المعضلة الموروثة عن أسلافها. وما ذاك إلاَّ لأنَّ مبدأها المنبسط على ثنائيَّة "النومين" و"الفينومين" ظلَّ ملازمًا لها كما هو في نشأته الأولى. وبسببٍ من هذا اللُّزوم تجدَّدت ألوان المعضلة وتكثَّرت أنواعها، واستدام الاختصام والفرقة بين جناحَيْ الثنائيَّة. ولمَّا لم يكن لهذا المبدأ أن يبلغ مقام الجمع بين الجناحين،

علم المبدأ ILMOLMABDAA
العدد التجريبي الأول . 1443هـ . ربيع 2022م

فقد أفضت الإثنينيَّة في غُلُوِّها الانشطاريِّ إلى وثنيَّة صارخة حلَّت ورسخت في قلب الميتافيزيقا قديمُها ومستحدثُها. جلُّ ما انبرت الفلسفة الأولى إلى تقريره، أنَّ "النومين" أو الجوهر المنفرد بذاته هو الكائن اللَّامشعور به، وأمَّا معرفته فمصموتٌ عنها لاستحالة إدراكه. والبيِّن من هذا التعريف وما نجم عنه من آثار ومؤثِّرات، لم يكن مردُّه عند أكثر قدماء الإغريق إلى كون هذا الكائن لا يعرَّف لأنَّه بديهيٌّ، وإنَّما لكونه سرًّا محجوبًا أشفقت منه طبائع العقول المذهولة بدنيا المظاهر. من هذا النحو لم يفلح نظام الميتافيزيقا القَبْليَّة في مجاوزة معضلته الكبرى المتمثِّلة بالقطيعة الأنطولوجيَّة بين الله والعالم. وهو حين تصدَّى إلى مقولة الوجود بذاته، أخفق في إدراك حقيقته. ثمَّ أعرض عنها وأخلد إلى الاستدلال المنطقيِّ والتجربة الحسِّيَّة. الموجود الأوَّل في هندسة العقل المقيَّد بالمقولات العشر ظلَّ لغزًا يدور مدار الظنِّ ولمَّا يبلغ اليقين. وبسبب من قيديَّته سَرَت ظنونُهُ إلى سائر الموجودات ليصير الشكُّ سيِّدَ التفلسف منذ اليونان إلى ما بعد الحداثة. من أجل ذلك سنرى كيف أنَّ التاريخ الغربيَّ رغم احتمائه بهندسات العقل الذكيِّ، سيخفقُ في إحداث مسيرةً حضاريَّة مظفَّرةً نحو النور والسعادة. فلقد تخلَّل ذلك التاريخ انحدار عميق في دوَّامة المفاهيم والمرئيَّات الفانية. والحاصل أنَّه كلَّما ازدادت محاولة الإنسان فهم دنياه، واستغرق في تأويل إنجازاته التقنيَّة، ازداد نسيانه ما هو جوهريٌّ. والنُّظَّار الذين قالوا بهذا لا يحصرون أحكامهم بتاريخ الحداثة، بل يُرجعونها إلى مؤثِّرات الإغريق حيث وُلِدتَ الإرهاصاتُ الأولى لتأوُّلات العقل الأدنى. كان أفلاطون على علوِّ مُثُلِه، مركز الجاذبيَّة في هذه التأوُّلات. مَالَ إلى معاينة موجودات العالم ضمن معايير عقليَّة صارمة من أجل أن يُحكَم من خلالها على صدق القضايا أو بُطلانها. من بعده جاء أرسطو لينشئ نظامًا منطقيًّا للتفكير، سترثه الفلسفات اللَّاحقة، لتصبح العقلانيَّة العلميَّة معها حَكَمًا لا ينازِعُه منازعٌ في فهم الوجود وحقائقه المستترة. وكحصيلة لمسارات العقل الأدنى ستأخذ الثورة التقنيَّة صورتها الجليِّة، لِتَفْتَتِحَ أفقًا تفكيريًّا سيعمِّق القطيعة مع أصل التكوين وحقيقة الوجود.

V

لمَّا ارتأينا تخصيص علم المبدأ بمصطلح يناسب هندسته المعرفيَّة، ويميِّزه عمَّا اقترفه العقل الأدنى، كان لنا أن نقترح له نظيرًا اصطلاحيًّا هو "الميتافيزيقا البَعديَّة".

فلئن كانت الفلسفة الأولى قد أسَّست للانشطار المعرفيِّ لمّا ألْزَمت نفسها بالتوقُّف عند تخوم الاستفهام القلق عن الوجود بذاته والموجود بغيره، فقد اتَّخذت الميتافيزيقا البَعديَّة مسارها المفارق

عبر فضاء الحكمة العرفانيَّة وكشوفاتها المعرفيَّة. سيكون مسعاها أن تنتقل بالعقل إلى الضفَّة الأخرى من نهر الوجود بهدف استِكْناه سرِّه المُضمَر، والانفتاح على آفاقه اللَّامتناهية.

الميتافيزيقا البَعديَّة إذًا، هي ما يُستظهَر بها الأصل المؤسِّس لعلم المبدأ، وهي نظير ما ينبني عليه العرفان النظريُّ والحكمة الصوفيَّة من استكشافات عقليَّة متعالية لميتافيزيقا الوجود. المقصد من إجراء هذا التناظر هو تمييز علم الوجود العرفانيِّ عن أنطولوجيا الفلسفة الكلاسيكيَّة. والتمييز هنا يُحيل إلى قضيَّة رئيسيَّة في نظريَّة المعرفة التي ينشدها علم المبدأ، أي وجوب تبيين الاختلاف المنهجيِّ بين الرؤيتين، بما يترتَّب على ذلك من النَّظر إلى الفلسفة الأولى بوصفها ميتافيزيقا قَبْليَّة قَصَرت مهمَّتها على البحث في ظواهر الوجود. إنَّ من أظهَرِ السِّمات التي يمكن استخلاصها من اختبارات الميتافيزيقا القبليَّة، أنَّ العقل قاصرٌ عن مجاوزة دنيا المقولات العشر وأحكامها.. وأنَّه لا يتيسَّر له إدراكُ ما وراء عالم الحسِّ. أمَّا النتيجة الكبرى المترتِّبة على هذا التأسيس، فهي إعراض الفلسفة الأولى عن سؤال الوجود كسؤال مؤسِّس، واستغراقها في خضمِّ بحرٍ تتلاطم فيه أسئلة الممكنات الفانية وأعراضها. فالمقام "المابعديُّ" لميتافيزيقا "علم المبدأ" يُفترض أن يطلق المنفسح الذي يتمدَّد فيه العقل خارج محبسه الأرضيِّ. والعقل الممتدُّ الذي نعنيه هو العقل الناشط في ترقِّيه إلى ما فوق أطواره المألوفة. وسمةُ الامتداد المعرفيِّ الذي تنبني عليه المنظومة العرفانيَّة إنَّما ينجزُه العقل نفسه الذي يتولىَّ تشكيل وتظهير ورعاية مبانيها الكبرى. من مفارقات هذا العقل في مساره الامتداديِّ أنَّه يجاوز مشاغل العقل المقيَّد من دون أن ينفصل عنه. وأمَّا وظيفته فهي قبول الحقائق وتأييدها بعد تنزُّلها عليه من عالم القدس. ولنا مع قولة ابن عربي ما يشير إلى ماهيَّة العقل في امتداداته وتوسُّعاته: "إنَّ ممَّا هو عقل، حدُّه أن يعقِلَ ويضبُطَ ما حصل عنده، فقد يَهَبُهُ الحقُّ المعرفة به فيعقلها. لكنَّ هذه المعرفة التي يهبها الحقُّ تعالى لمن يشاء من عباده، لا يستقلُّ العقلُ بإدراكها، ولكن يقبلها، فلا يقوم عليها دليلٌ ولا برهانٌ لأنَّها وراء طور مدارك العقل.

في رحاب العقل الامتداديِّ الذي يُنشدُه علم المبدأ، يتَّخذ السؤال مكانة تأسيسيَّة بيِّنة من خلاله وبمعونته. يستفهم العارف حقيقة الوجود وسرَّ القدر في عالم الخلق والأمر، لكنَّ سؤالَه هنا لا يسلك السبيل الذي درجت عليه المعارف المحصَّلة من حقولِ البحث العلميِّ ومعاييره الشائعة، بل هو ينحو نحوًا تتآزر فيه إلهامات التجربة الشهوديَّة وكشوفاتها، مع تساؤلات العقل النظريِّ وحدوساته. لعلَّ الأبرز في مزايا هذا الصنف من السؤال، أنَّ العارف يُسائِلُ الغيب والواقع من دون

أن تشوب استفهامه شائبةُ تناقض. وما ذاك إلَّا لأنَّ سؤاله أو تساؤله يبقى على وصلٍ وثيقٍ بالدائرتين الغيبيَّة والواقعيَّة. فالسؤال العرفانيُّ بهذه السِّمة المفارقة يكتسب صفة الشمول، ليكون استفهامًا عن الوجود والموجود، ويتطلَّع إلى بلوغ الدرجة القصوى من الاستفهام عن واجدِ الوجود الأتمْ. وبوصف كونه سؤالاً ينتسب إلى علم المبدأ، ويؤلِّف أحد أبرز تشكُّلات نظريَّته المعرفيَّة، فهو إذًا، استفسار حميم عن المبدأ والغاية، وبحثٌ مسؤولٌ عن المُحيط والمُحاط. وبهذا المعنى هو سؤال مؤسِّس، ويؤسَّس عليه. والسؤال المؤسِّس عند العرفاء متعلِّقٌ بالعلم الإلهيِّ الذي هو أعلى العلوم مطلقًا، بل هو أشرف العلوم، لأنَّ شرف العلم متقوِّمٌ بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات.

لهذا السبب، كان استفهام العارف عن الوجود استفهامًا عن أتمِّ الموضوعات حيطة وشمولاً، وأبْينِها معنىً، وأقدمِها تصوُّرًا وتعقُّلاً. ما يعني أنَّ مقولة التأسيس التي يتَّخذها السؤال العرفانيُّ دُربَةً له، مبنيَّةٌ على تلازُم وطيد بين مسعَيَيْن: أنطولوجيٍّ (علم الوجود) وفينومينولوجيٍّ (علم ظواهر الوجود). أمَّا جلاء هذه الحقيقة في منظوريَّة المعرفة العرفانيَّة وحكمة التصوُّف، فلا يتأتىَّ من تشطير هذين المسعَيَيْن المذكورين، وإنَّما من التكامل والإنسجام بينهما، حيث يكون السؤال مطابقًا لكلِّ مرتبة وجوديَّة بقَدَرِها.

VI

علم المبدأ بما هو تأسيس للحضارة الرحمانيَّة

لحضور العرفان والحكمة الصوفيَّة مكانةٌ استثنائيَّةٌ في منظومة علم المبدأ المعرفيَّة. وما من شكٍّ في أنَّ هذه الفرضيَّة تنبسط على دلالاتٍ مفارقة للمألوف في العمليَّة الإحيائيَّة للحضارة المعاصرة. مقتضى القول أنَّ الإيمان بالغيبِ حاضرٌ بقوَّة في الزمان التاريخيِّ للإنسانيَّة. وبقدر ما يكون لهذا الحضور مقدِّمات ونتائج متعدِّدة الآفاق، فإنَّه يكتسب في ميتافيزيقا علم المبدأ سمةً فوق تاريخيَّة. أي أنَّه يجاوز منطق التاريخ بدلالاته ومعانيه الوضعيَّة. وهذا عائد إلى أنَّ العرفاء العاملين في فضاء الإحياء الحضاريِّ يستمدُّون مداركهم من الحقيقة الدينيَّة التي تتبوَّأ منزلة الإشراف على مجمل المنازل والمراتب والشؤون المتَّصلة بإدارة الاحتدامات الحضاريَّة. وهكذا تقوم الميتافيزيقا الحضاريَّة في علم المبدأ على ركنين متلازمين لا انفصال في وحدتهما: ركن الاعتقاد بالغيب وركن التعامل مع الواقع بالحكمة والإحسان. وبمقتضى هذين الركنين، نرانا بإزاء وصلٍ وطيد بين الواقع

والحقيقة الدينيَّة، وبمعنى أعمق بين الاعتناء الإلهيِّ والواقع التاريخيِّ. وكلُّ ذلك ضمن جدليَّة التفاعل الخلاَّق بين الفعل البشريِّ المؤسَّس على الصِّراط، والوحي الذي يؤيِّدُه ويَهديه ولا ينفكُّ عنه طرفة عين. مع هذين - الوصل والتفاعل - لا يعود عالم الشهادة منقطعًا عن عالم الغيب، كذلك لا يعود العدل الإلهيُّ مجرَّد مفهوم سارٍ في فضاء الاحتمالات، بل هو أمرٌ مقضيٌّ ومقدَّرٌ يفصح عن جمع وثيق بين إرادة الغيب وقوانين التاريخ في الآن عينه.

لمَّا كانت المسألة المحوريَّة متعلِّقة بالمكانة التي تتبوَّأها المنظومةُ العرفانيَّة في الإحياء الحضاريِّ، فإنَّ تنجيز هذه المسألة يفترض مجموعة من الفرضيَّات:

أوَّلًا: حاضريَّة العرفان والحكمة الصوفيَّة كفضاءٍ معرفيٍّ وسلوكيٍّ وأخلاقيٍّ، بما لهذه الحاضريَّة من مفاعيلَ حاسمةٍ في تشكُّلات نظام القيم في التاريخ الاجتماعيِّ والحضاريِّ للإنسانيَّة.

ثانيًا: إيقان العرفاء بسيادة العدل الكونيِّ كخاتمة حتميَّة في تاريخ الإنسان.

ثالثًا: اعتناء المنظومة العرفانيَّة بشؤون الإنسان الدنيويَّة والأخرويَّة كواجبٍ إلهيٍّ. وتبعًا لهذا الإعتناء تنسلك أطروحة التدبير ضمن مسرىً جوهريٍّ هادفٍ إلى بناء مجتمع إنسانيٍّ مؤسَّسٍ على الخيريَّة الشاملة. وعلى خلاف ما شاع من أحكام عجولة في هذا الشأن، فإنَّ معاينة متأنِّية لاختبارات العرفان في ميدان الإحياءِ الحضاريِّ، تُظهر صلته الوطيدة بتحوُّلات كبرى انخرط فيها أكابر العرفاء والمتصوِّفة، ودلَّت عليها شواهد بيِّنة في التاريخ الوسيط والحديث.

رابعًا: إنَّ رؤية إجماليَّة لمواقف العرفاء ومناهجهم في مقام التدبير، تكشف عن وصل عميق بين التعرُّف على الحقِّ، ورعاية شؤون الخلق. ومثل هذا الوصل - الذي يعرب عن فعليَّته وفق مبدأ الحكمة والموعظة الحسنة - يشكِّل ركنًا تأسيسيًّا في المنظومة المفترَضة للإحياء الحضاريِّ.

خامسًا: العرفانُ علمٌ عمليٌّ جامع لأركان الشريعة، ومؤيَّد بالسير والسلوك والمجاهدة بغية الوصول إلى مقام الولاية التدبيريَّة، فضلاً عن كونه علمًا مرتَّبًا على منهج التأويل.

سادسًا: إنَّه علم ربَّانيٌّ يحصِّلهُ العارفُ بالإلهام والحدْس والمجاهدات المعنويَّة والروحيَّة. وبالتالي فهو علم رسالة غايتُه إصلاحُ شأن الخلق وإيصالُهم إلى الحضارة الفاضلة.

سابعًا: إنَّه علمٌ سيَّال يؤتى للعارفِ من جهات الوجود كلِّها، ويجري مجرى معرفة النَّفس ومعرفة العالم ومعرفة الله. ولأنَّه كذلك فهو علمٌ رساليٌّ وحيانيٌّ غايتُه إصلاحُ شأن الخلق، وإيصالُ البشريَّة إلى سعادتها.

علم المبدأ
ILMOLMABDAA
العدد التجريبي الأول . 1443هـ . ربيع 2022م

وبسبب من حَواية العرفان على المعارف الإلهيَّة والعلوم الإنسانيَّة المكتسَبة في آن، فبديهيٌّ أن يُتعاملَ وخاصيَّته الجامعيَّة هذه، بمنهج مفارق، يتضافر مع المناهج الأخرى ويتعدَّاها في الآن عينه. فالمنهج العرفانيُّ في علم المبدأ هو الذي تتضايف فيه الأضداد على نصاب الوحدة والتكامل، كما تتناظر فيه أسئلة الواقع مع أسئلة الغيب، والأسئلة الوجوديَّة مع الإجابات الوحيانيَّة.

وعلى دُربةِ الجمعِ بين الحقائق الغيبيَّة، والتدبيرات الواقعيَّة في المجتمع الإنسانيِّ، ينعقد رهان علم المبدأ على ميثاقٍ متعالٍ يمهِّد السبيل إلى حضارة التوحيد والعدل والخيريَّة التامَّة.

***

في المتناول العدد التجريبي الأول من فصلية (علم المبدأ)، وهو مستهلّ تجربة مستحدثة تتاخم مباحث الإلهيّات وعلم مبدأ الوجود. ولقد وجدنا أن نتّخذ من العرفان النظريّ واختبارات الحكمة الصوفيّة دربة لحفريّاتٍ فكريّة ومعرفيّة معمّقة، نأمل أن تستجيب لما هو راهن من الأسئلة الكبرى التي تواجه معضلة القيم الإيمانيّة والأخلاقيّة في الحضارة الإنسانيّة المعاصرة.

كلنا رجاء أن نوفّق في ما قصدنا إليه.. والله تعالى من وراء القصد.